

الإصلاح

الإصلاح نعمة قديمة تردّها جميع الحكومات عند وصولها، وتستعملها شعاراً لإزاحة المحسوبين على الخارجين من الحكم، فتحملهم مسؤولية الفساد والاهتراء، لتأتي بمثلهم من ألامها. لم يأخذ الإصلاح يوماً معناه الحقيقي، لا من حيث شموليته جميع القطاعات، ولا من ناحية مضمونه، وقد اقتصر على عملٍ تبديليٍّ بأشخاص لهم نفس المنهجية والسلوك.

وهكذا يأتي هذا النوع من الإصلاح ليؤمن استمرار نهجٍ فاسدٍ لحكمٍ فاسدٍ، والذي يحاول، بعملية التبديل، احتجاز مراكز الإدارة، وربطها به بُغية احتكار المغانم، والمحافظة عليها طيلة مدة الولاية. وهذا المفهوم المكسبي في ممارسة السلطة، يُبقي الفساد حيث الفساد، ويُبقي المحسوبيّة حيث المحسوبيّة. فلا التزام بالقوانين، ولا تحديث للأساليب، بل خضوع مطلق للرغبات السياسية، وغالباً ما تكون تعسّفية، وخاضعة للأهواء الخاصّة.

نَسوق هذا الكلام، لا لفتح سجلّ إعلامي مع حكومة لا نشعر بوجودها إلا بالسلبيات التي تقوم بها، ولكن لنذكرها بأنّها تُفقد نفسها الصدقيّة اللازمة لإقامة دولة القانون التي تدّعي أنها حريصة عليها. إنّها تحمل إرثاً من التعسّف بفضل الحكومة السابقة، التي أصبحت وريثتها الشرعية، كما أنّ لبعض من أعضائها سجلاً حافلاً، ومليئاً بالأعمال التي يُدين، هو بنفسه، الموظفين بها. كان الأحرى بهذه الحكومة، أو بغيرها، أن تبدأ بإصلاح نفسها، فنترجع عمّا تجاوزته في القانون، وما ارتكبته في أعمالها من جرائم تصفيّة سياسية وغيرها.

إنّ حكماً له سوابق في الاتهام الكاذب، لا يمكن أن يأخذ صفة الإدعاء وصفة القضاء، ويحكم عشوائياً على من يريد. هذه الأساليب البدائية يجب أن يرفضها اللبناني لأنّه لا يمكن إصلاح الجريمة بالجريمة. فالقرار السياسي وحده ليس ضماناً لأحد، ولا يقود إلا إلى الأخطاء. فالإكتفاء بإزاحة من فسّد وأفسد من دون إحالته إلى القضاء، إجراءً غير كافٍ لإقامة العدل. لا بل يصبح ظلماً إذا كانت الإدانة قائمة على الشكّ فقط.

إنّ ممارسة السلطة عملٌ دقيقٌ لا نشعر بأنّ القائمين به قادرون عليه، لأنّهم يفتقدون إلى الضوابط الشخصية في ممارسته، فكلّ قرارٍ يخرج عن الإطار القانوني والأخلاقي، يصبح جريمة، وإن كان، شكلاً، من صلاحية من يتّخذه. إنّ ما تقوم به الدولة في ميدان "الإصلاح" لا يتعدّى، سياسياً، العمل الثأري من بعض الصغار، وتقديمهم أكباش محرقة لتغطية الكبار، والذي أفسد الماضي لا يستطيع إصلاح الحاضر ولا إنقاذ المستقبل. الرأي العام يحبّ الضحايا، تلهيه مؤقتاً، ولكنها لا تسدّ جوعه...